(٨)

امرأة مثلها

يجب أن تحمل

وتلد أطفالاً كثاراً

حتى تتحمل الخسارة

عندما يموت واحد أو اثنان

آما عطا عيدو، ١٩٧٠

القاهرة، مايو ١٩٩٧

جرس الإنتركوم يرن فى الممر. كنت فى حجرة نومى أعمل كعادتى هذه الأيام فى مشروع آنا الذى اتخذته لنفسى: أقرأ عن تلك الفترة وأفحص الصور، أحاول أن أُعمِل الخيال، كنت دائما أحب العمل فى حجرة النوم، اتحرك من المكتب إلى الفراش إلى التسريحة ثم أعود إلى المكتب، كانت ضرورة فى مرحلة من حياتى، واليوم أتجاهل الحجرات الخالية وأقضى أيامى وليالىّ فى هذا الركن من الشقة. أُسَمّى المنضدة التى تحت الشباك منضدة آنا، وعليها أوراقها. رتبت الأوراق حسب التسلسل الزمنى بقدر المستطاع، قارنت الأوراق الغفل من التاريخ بالأوراق المؤرخة وضاهيتها حسب لون الورق ونوعه، ورتبتها فى ١٢: مجموعة، مجموعة لكل سنة، تختلف السنوات من حيث غزارة المجموعة، اليوميات موضوعة على حدة، أحاول ألا أقرأها حتى النهاية. أقرأها سنة بسنة، على أنى اعرف كيف انتهت الحكاية، ولا أظن أن هذا مهم، فنحن دائما نعرف نهاية الحكاية، أما ما نجهله فهو ما يحدث فى الطريق إلى النهاية .

متعلقات آنا ملفوفة كما وجدتها فى الصندوق الذي يرقد الآن بجوار الحائط إلى جانب التسريحة فى حجرتى.

كنت أتوقع حضور إيزابل فتوقفت عن العمل ووقفت فى النافذة، أرقب بلا تركيز امرأة تنشر الغسيل . لابد أن غسيلها اليوم اقتصر على الغيارات البيضاء، فهى تنشر فانلات، فانلات بيضاء واحدة ثم واحدة، فانلات كبيرة ثم متوسطة ثم فانلات صغيرة، تنحنى لحظة فتختفى خلف سور شرفتها ثم تقوم واقفة وفى يدها فانلة ومشبك الغسيل بين أسنانها، تنفض الفانلة وتفردها ثم تشبكها فى الحبل عند الكتف، وعندما تنتهى تلتقط إناء البلاستيك الأخضر وتدخل إلى شقتها، تتدلى الفانلات فى الهواء الساكن كتفا إلى كتف، أعجب لأيام كنت أتذمر فيها من عبء غسيل ملابسهم، لكن فى أوقات أخرى كنت أتوقف ساكنة وفى يدى فردة شراب مبتلة وقد فاجأني خاطر عن يوم آت سيخلو من غسيل

الجوارب ونشر ملابس الألعاب الرياضية أيام الثلاثاء والخميس لتجف، يوم يصبح وقتى كله ملكى أفعل به ما أتمنى . اليوم أتمنى؟ لو كنت أعيش مع زوجى؟ لو كان أبنائى يعيشون فى الجوار؟ لا أحد اليوم يعيش فى جوار أهله، وهذه السيدة فى البيت المقابل من يدرى أين يذهب أبناؤها عندما يكبرون؟ كندا؟ دبى؟ القمر؟ قد يبتسم لها الحظ ويستقر واحد منهم هنا فى القاهرة، قريبا منها فترى أحفادها وتحملهم بين ذراعيها وتتبادل الحديث فى شيخوختها .

نظرت إلى الأشجار تحتي فى الحديقة وتساءلت : لو أنها غُسِلَت، لو أن أحدا غسلها من فوق لتحت بخرطوم ماء، إلى متى تظل نظيفة؟ وكم من الوقت يستغرق الغبار ليستقر عليها ثانية؟ وتساءلت كم عمر هذه الأشجار وهل هى من مخلفات زمن كان فيه هذا احي من المدينة حقولا خضراء؟ أم أنها بدأت عمرها أشجارا فى المدينة، لا أظن. الأشجار هنا لا تزرع بل تقتلع، ذلك الطريق الواسع تحفه أشجار الكافور العملاقة فى الجيزة على أول الطريق إلى الصعيد دمروه (ضربوه)، أشجار تناطح السماء تعلو إلى أكثر من ستين مترا، زُرِعَت أيام محمد على، اقتُلِعَت من الجذور لتوسيع الطريق أمام السيارات والشاحنات المتجهة إلى الصعيد . عندما رن الجرس خيل إلى أن إيزابل حضرت مبكرة عن موعدها . سرت إلى الباب ورفعت السماعة فرن صوت تحية فى أذنى :

« دكتوره! يا دكتوره! »

زعقت « أيوه ؛ نعم » وأنا أبعد السماعة عن أذنى.

« أطلع لك دقيقة؟ »

« اتفضلى. »

« الآن؟ »

« أيوه! تعالى. »

تحية زوجة البواب، وصديقتى ، تسأل عنى وترسل أطفالها ليسألوا إذا كنت أحتاج من يغسل الأطباق أو يأخذ ملابس الكواء. تدخل الآن مبتسمة وأصغر أطفالها على جنبها وساقة فى الجبس.

« إن شا لله ما كنتيش نايمة؟ »

« لا، لا » وأعبر الحجرة لأغلق باب الشرفة وهى تنزل الطفل إلى الأرض « الجرس صوته عالى قوي . كل مرة يرن أنزعج. »

تقترح وهى تنظر إلى الجهاز « نجيب له المهندس؟ » .

« ممكن » وأنظر إليه أنا أيضا .

« أو يمكن يبوظه ».

« بلاش أحسن ».

فالجهاز إضافة جديدة، لمسة تحديث للعمارة، وتحية وعم مدنى البواب يفخران به .

« ما قصدناش نصحيكى ».

« ما كنتش نايمة. تشربي شاي؟ »

ندخل إلى المطبخ فتقول « استريحى انت. » أجلس إلى مائدة المطبخ وهى تملأ الغلاية . يتبعنا عبدالرحمن وقد عاد يحبو بسبب ساقه في الجبس، يجلس على الأرض أمام خزانة أبى العالية ويفتح الدرج الأسفل حيث مشابك الغسيل من البلاستيك الملون .

تقول ونحن ننتظر أن يخرط الشاى « شوفى لى ده كده؟ » تضع أمامى مظروفا كبيرا بنى اللون، أفتحه وأخرج صورة أشعة، كلا سونار، أقرأ المكتوب بالإنجليزية فى حروف دقيقة، أرفع عينى إلى وجهها المليح المجهد، العيون العسلية مكحولة والحواجب رفيعة منتوفة والمنديل الأزرق يقمط الجبهة .

« تانى؟ تانى يا تحية؟ »

« والله ما كنت عايزة . قلنا أربعة وحمدنا ربنا وقفلنا على كده، لكن أمر الله؛ نعمل إية؟ »

« ألم تركبى اللولب؟ افتكرت إنك .... »

« أيوه، ركبت لكن نزل علىّ دم، الدكتور خلعه وقالوا خدى راحة فترة، وانت عارفة الرجالة ».

تختبر الشاى، أصبح فى لون النبيذ، تصبه فى كوبينا وتضيف السكر باللعقة.

« عندك بسكوت هناك على الرف. »

تحضر الطبق إلى الطاولة وتعطى ابنها بسكوتة.

« ورسول الله أنا ما ملاحقه عليهم كلهم، امبارح البنت الصغيرة كان عندها حرارة بتزن طول النهار، وبالليل الولد ده خلانى صاحية طول الليل وأنا رايحة جاية. الجبس ولا مؤاخذة يخلىّ رجله تاكله، طول الليل وأنا شايلاه، رايحة جاية بيه أطبطب عليه وأهدِّيه حتى مدني كان شوية شوية حيقول لي ربنا يكون في عونك.

« كتر خيره ».

« يعمل إيه يا دكتوره؟ طول النهار يشتغل، وعنده سكر . صحته ما عادتش زى الأول ».

أسمع صوت إيزابل فى خيالى تقول عنده سكر لم يمنعه من أن يتسبب فى حملها، وعندما كان بصحته هل كان يستيقظ فى الليل ويهدئ الأطفال؟ لكن « هل هي إيزابل حقاً؟ أم أنها أفكارى أنا تتردد فى صوت إيزابل. وطبعا فكرة الإجهاض مستحيلة، تحية ستقول : حرام

يا دكتوره، دى روح مهما كان. أسألها منذ متى؟

« مش متأكدة ».

أنظر فى التقرير وأقول لها : ١١ أسبوع .

« بصي لى فيه، كده واقريه لي كله والنبي. ».

« حامل فى ١١ أسبوع والجنين طبيعى ».

« الحمد لله! » تتنهد .

« عم مدني بيقول إيه؟ ».

« هيقول إيه؟ يقول نوكلهم منين ويحمد ربنا. »

أقول ساخرة « العيل ييجي ورزقه معاه ».

« معلوم ». توافقنى ثم تقوم لتغسل الأكواب .

– يا ختى اضحكى، إحنا حناخد منها إيه؟ »

« ولا حاجة. الإنسان مصيره لربه. وأهم خمسة فى عين العدو! »

يدق الجرس ثانية وأقوم لأرد. تدخل إيزابل وتحية تجمع مشابك الغسيل وتمسح فتات البسكوت من على الأرض. تبتسم كل منهما للأخرى .

تهتف تحية « هالو » بصوت عال وهى تقوم واقفة تبتسم وترفع يدها إلى رأسها بالتحية خشية ألا تفهمها إيزابل.

ترد إيزابل « هالو! إزّى الصحة؟ »

تتسع عينا تحية وهى تستدير إلىّ « تتكلم عربى! »

« شايفة بقى الشطاره! »

« يختى براوه عليها، شكلها نبيهه والله »، تبتسم تحية بإعجاب. ثم تسأل « هى متجوزة؟ »

« لا ».

« زى القمر ومش متجوزة؟ ليه؟ ما عندهمش رجاله فى أمريكا؟ »

أضحك: « يمكن مش عايزة أمريكانى ».

« خلاص نجوزها هنا، شوفي لها عريس كويس من معارفك يا ست أمل ونعمل لها فرح يهز البلد. »

تنحنى لترفع عبدالرحمن « فى حاجة أعملها لك قبل ما أمشى؟ »

« كتر خيرك يا تحية. »

« طيب استأذن أنا »

تصلح وضع ابنها على جنبها وتحاذر فى إخراج ساقة بجبسها من الباب « سلامٌ عليكم » .

تعلق إيزابل . «دائما منشرحة، وتعمل بجد طول الوقت».

«فعلا».

«آخر مرة كنت هنا رأيتها تمسح السلم، سلم العمارة كلها».

«لابد أنه كان يوم خميس . هل تريدين ... هل آتيك بشراب؟ الساعة بعد السابعة بقليل».

«فكرت أن نخرج للعشاء، اسمحى لى أدعوك للعشاء فى الخارج».

«عندى طعام هنا».

« فلنخرج أحسن، ألا تخرجين أبدا؟ »

هززت كتفى .

« لابد أن هناك مكانا يعجبك؟ »

* * *

تقول إيزابل :«تعالى إلى نيويورك، تعالى وانزلى عندى .»

« لا شكراً».

«يمكنك أن تفعلى ما تريدين. شقتى واسعة، وسنلتقى فقط عندما تحبين».

أهز رأسى بالرفض .

«وترين أخاك».

«سأراه عندما يحضر إلى القاهرة».

«لكنة لا يحضر كثيرا».

«أعرف».

«هل أخذت على نفسك عهدا أم ماذا؟ »

«قررت العودة إلى بلدى، تعبت من السفر.»

وهل أذهب إلى نيويورك بدون التوقف فى لندن؟ وهل أتوقف فى لندن ولا ألتقى بزوجى؟

«ستحضرين يوما . أنا متأكدة.»

« حقا؟ »

«ستحضرين عندما يعرضون فيلمى .»

« أكيد.»

« أنا أتحدث بجد.»

«إيزابل ! أنت بعد لا تعرفين بقية الحكاية، لا تعرفين كيف تتطور الأمور »

« لا يهم. أستطيع رؤيتها، من طريقة وصفك لها أستطيع أن أراها.»

أهز رأسى، يبدو أننى دائما أهز رأسى في يأس، لكنها شجاعة منى، حتى الحضور هنا، عبر النهر، إلى هذا المطعم حيث تعشينا، حيث قبّل يدىّ وتظاهرت بأننى لا ألاحظ كيف ينظر الجرسونات إلينا.

تسألنى «تراهنى؟».

«لا».

«أرأيت؟ لا تريدين أن تراهنى.»

«كيف تتقدمين فى مشروعك؟ ألفيتك؟» ترفع بصرها إلى، نسكت والجرسون يفرش المائدة بالمزات: محشي ورق العنب، حمص برشة زيت، بابا غنوج، سلطة جبن وطماطم، خبز طرى وخبز محمص. تسألنى: «ماذا تقصدين بألفيتى؟»

أبتسم لها، قالت عنها تحية : تبدو نبيهة.

«بالتأكيد هي ألفية لك أكثر منها لي.»

تأخذ إيزابل قطعتين من محشي ورق العنب وتضيف إليها الحمص:-

- «هناك أشياء كثيرة لا أعرفها، لكن هذه بداية، أليس كذلك؟»

«معك حق. أنا آسفة.»

وأنا آسفة فعلا لأننى مع كل ما أعلنه من الحياد والبعد عن الأحكام المسبقة كنت طول الوقت أنظر إليها بصفتها «الأمريكية».

«على أى حال كيف يسير مشروع بحثك؟»

«لا أعرف بالضبط، من حدثتهم كانوا حريصين جدا فى إجاباتهم، يتحدثون أساسا عن التكنولوجيا، ولدى شعور أنهم لا يتحدثون عما يشغل بالهم فعلا».

«المسألة صعبة.»

«ولم؟ ما الصعوبة؟»

«لأنك أمريكية.»

«وما ذنبى؟»

«ليس لك ذنب، لكن يصبح من الصعب أن نتحدث معك فى بعض الأمور».

«أليس المفروض. إن لى عقلا متفتحا. ما هي الأشياء التي تتحرجين منها؟»

أعدها «سيتحسن الحال، اسمعى سنجد طريقة.»

تسكت برهة ثم تقول :

«على أى حال، لقد جدت أشياء كثيرة تثير اهتمامى الآن، لن أعدل عن المشروع، لكن هناك أشياء أخرى أريد تحقيقها.»

« لكن اسمحى لى يا إيزابل أن أسألك، كيف تدبرين أمورك مع نفقات كل هذه السفريات؟ »

– آه ! ورثت عن أبى بعض المال، وسأبيع، شقة والدىّ. لست ثرية لكن ... » تبتسم وأسنانها المنتظمة تبرق فى ضوء الشمعة الموضوعة على المائدة تحت غطاء من الزجاج .

* * *

قنديل من الزجاج المصنفر، فرشاه آنا خطت عليه الحروف. غُمِسَت فى حبر الأكوامارين وانسابت مع جذع الألف لتزهر فجأة، خطت ذيل الياء فانفجرت فى رشاش من الصواريخ تبعثر فى النص علامات الترقيم، كانت تعرف من العربية ما يكفى لتتبين الحروف، لكنها لم تميز بعد أين تبدأ الكلمة وأين تنتهي. أرفع رأسى وأنظر إلى إيزابل، جميلة فى الجاكت الوردى المغبر المصنوع من القطيفة، تجلس قبالتى إلى المائدة، أبوها متوفى وأمها فى عداد الأموات، نشترك فى اليتم أنا وهى. أخوها متوفى وأخى غائب . بسرعة ألمس خشب المائدة فى السر، أخى غائب لكنه حى. زواجها فشل، وأنا كذلك . أحاول أن أتحدث ببساطة

« أتعرفين؟ كنا نحضر إلى هذا المطعم أنا وزوجى كلما نزلنا القاهرة. كان مطعمنا المفضل. هذه أول مره أحضر هنا بدونه. »

« هل أنت مطلقة؟ »

« لا، لكننا انفصلنا منذ زمن بعيد. »

لكن أنا لى أولاد أما هى فلا، على أن ابنائي ليسوا معى، وأحاول ألا أقضى أيامى فى انتظارهم، فى انتظار جرس التليفون وصوت أحدهم يقول: ماما، أفكر فى الحضور لأراك. ينساب شعر إيزابل ناعما متألقا إلى أسفل الأذنين، وفى جيدها الطويل سلسلة رقيقة من الفضة، إنها فى ريعان شبابها، فى البداية، وأنا أقارب النهاية ـ أبتسم لها. تقول:

« أتعرفين؟ أنا سعيدة حقا أنى تعرفت عليك. »

أمد يدى لحظة وأربت على يدها الساكنة على المائدة بيننا وأقول:

« أدهشتِ تحية بالكلام العربى. »

« تعلمت حروف الهجاء ويعطوننى قوائم من الكلمات لكن. »

« لكن؟ »

« لم أجد مفتاحا لفهمها. »

« اسمعى، تعرفين الحروف وعندك قاموس. كل كلمة تقوم على جذر، والجذر مكون من ٣ حروف أو حرفين، بعد ذلك تتخذ الكلمة أشكالا مختلفة، انظرى ـ » تستيقظ فى عادة

التدريس القديمة وأنا أبحث فى حقيبتى عن ورقة وقلم ـ

« خذى هذا المثال: ق ل ب. يمكنك قراءة هذا ؟ »

« نعم. »

« قلب: القلب الذى يدق، القلب فى قلب الأشياء، أترين؟ »

تهز رأسها وهى تتفحص الحروف على الورقة.

« ثم هناك عدد محدد من الأشكال يمكن أن يتخذها الجذر – أى جذر مثلا عندك ق ل ب: يقلب، يطيح به، يقلب رأسا على عقب، يقلب إلى العكس؛ ومنها مقلب: حيلة قذرة، تغيير المسار (قلب الموائد)، مقلب زبالة (نفايات). مقلوب: رأس على عقب، مُتَقَلّب: كثير التغير، وانقلاب: ضربة سياسية ـ »

إذاً فى قلب الأشياء جميعها بذرة سقوطها، كلما اقتربنا من القلب شارفنا انقلاب الحال، لا مناص من الهبوط وبعد القمة ليس هناك سوى الانحدار، نصل للب الموضوع فيطيح بنا الانفجار ـ

تسأل إيزابل:

« هل هناك كتاب يشرح هذه الأمور ؟ »

« لا أدرى، لابد أن هناك كتبا فى الموضوع، أنا شخصيا وصلت إليها بالاستنتاج. »

« مفيدة فعلا. »

« أعتقد ذلك ـ تريك طريقا تسلكينه. » (مفتاحا)

– وفى كل مرة تستخدمين كلمة، تأتى معها بجميع الأشكال التى تخرج من نفس الجذر ؟

نعم تأتيك سابحة فى حشد (عنقود) مثل البويضات: الملكة فى الوسط تصحبها غيرها من البويضات كبيرة وصغيرة، التى لن تنال الإخصاب هذه المرة.

« نعم » بتردد

« نعم .ابحثى دائما عن الجذر: الحروف الثلاثة أو الحرفين. »

« سأدرس هذه الفكرة وأطبقها. »

« أعلمينى بالنتيجة. »

تطوى إيزابل الورقة وتضعها فى حقيبة يدها. الليل يخيم خارج زجاج النوافذ المتسعة، قل مرور السيارات فى شارع ماسبيرو، وغطى الظلام على الغبار العالق بالأشجار. تلمع أضواء المركب عمر الخيام ومطاعم الباشا على ماء النيل. من حين لآخر يسرى قارب صغير بهدوء، وبجانب السور الحديدى يتلكأ المتنزهون اثنين اثنين، الشباب فى قمصان قصيرة الأكمام والبنات متلفحات بطرح وإيشاربات كبيرة، إذا مر بهم شاب يسير منفردا يدير

رأسه ويطيل التحديق .

نغادر المطعم، ونسير واحدة وراء الأخرى على الرصيف الضيق إلى حيث تركنا السيارة بجانب فندق هيلتون رمسيس، أعتذر عن قبول دعوة إيزابل أن نتناول شرابا، كفانى أشباح من الماضى فى هذه الليلة، بودى أن أعود إلى شقتى، وإلى حجرتى.

ندور تحت الشجرة العملاقة أمام مبنى التلفزيون الذى ما زال محصنا بأكياس الرمل منذ حرب ٦٧، ونعود أدراجنا إلى كوبرى قصر النيل.

تسألنى إيزابل « ما أخبار آنا؟ » .

أقول « فاتكِ الكثير، فقدتِ الصلة. »

« أبدا، قلتِ انها ذهبت إلى مصر - حضرت إلى مصر. لقد قرأت ذلك الجزء عن الإسكندرية. »

« طيب ! هى الآن فى القاهرة ؛ تقضى معظم الوقت مع الجالية الانجليزية، السفارة ومتعلقاتها، تريد أن تتعلم اللغة العربية. »

« من الذى سيعلمها؟ »

« لا أعرف بعد، چون بارنجتون يعرف العربية ».

« هل وجدت ما كانت تبحث عنه؟ ما رأته فى لوحات فردريك لويس؟ »

« على خفيف جدا، فى السوق، لكن بشكل عام لا. »

« هل ستجده حقا؟ »

« لا أدرى ، أملى أن تفعل، على أنها تبقى مدة طويلة فلعلها وجدت شيئا ما. »

« يعنى عندنا مشهد فى البازار ؟ »

« نعم، مشهد كامل بكل الملحقات: حمير الركوب، والحرفيون المسنون بأجسامهم الضئيلة، ونداءات الباعة، والوصيفة المذعورة التى لا يعجبها المكان، وأطفال الشارع يزعقون فى طلب البقشيش -»

« أنت تسخرين منى. »

« على خفيف، وبلطف. »

« أتعرفين أنك تشبهين أخاك بشكل ملفت. »

آه. كنت أتساءل متى تعود للحديث عنه! أخى!